

المتنبي في ديوانه

بمناسبة زكراه الالفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

بقية ما نشر في العدد الماضي

وقال المتنبي :

يترشفن من في رشقات من فيه أحلى من التوحيد
فقالوا : لو كان يجد للإيمان في قلبه حلاوة لما جعل
رشقاتهم من فيه أحلى من التوحيد . ونقول : إن البيت قد روي
هكذا : من فيه حلاوة التوحيد ، وهي نسختنا أيضا . وقد قيل
إن أفضل غير مراد به التفضيل ؛ وقيل أيضا إن التوحيد نوع من
التمر . وعلى الرواية الثانية يكون شبه الترشيف بحلاوة التوحيد
ولا حرج في ذلك ، ومثله مستباح في مذهب الشعراء . هذه ثلاثة
أبيات ليس في شعر المتنبي أكثر غلوا منها ، ومع ذلك فهي لا ترد
علينا كما رأيت . أما مذاهب عقلية فنشير إليها حيث يقتضي
المقام ذلك ؛ وليس هناك ما يدل على أنها من ذات نفسه ومضمر
قلبه أصلا ؛ وأما مبالغاته في المدح فيصل بها إلى حد المقارنة بين
نفسه ومدوحه وبين الأنبياء

والأمر الأول لاشك لا يؤاخذ عليه لأنه حتى على فرض كونه
مما يؤثر في صحة الإيمان فمن أين لنا أنه كان يستفده ؟ وإلا فما كى الكفر
ليس بكافر ، وعلى أنه اعتقده فمن أين لنا أنه استمر على اعتقاده
إلى أن مات ؟ وعلى كل حال فالحكم على المتنبي بضعف العقيدة
لبعض أفكار فلسفية تضمنها شعره يجعلنا لا نقبل في حظيرة
الاسلام أكثر علماء الاسلام من الذين لهم مذاهب فلسفية
وأفكار حكيمية . على أنه ما من قول موهوم في شعر المتنبي إلا وقد
وجد في شعر غيره ما هو أكثر إيهاما منه ، فلماذا لم يحكموا على
غيره من الشعراء بذلك الحكم الجائر ؟ ولولا ضيق المجال لبقدنا
مناظرة بين أقواله وأقوال غيره من الشعراء في هذا الموضوع حتى
يرى القارى أن المتنبي لا يزيد على غيره إن لم يقصر في ذلك .
واليك قوله مثلا في كافر :

ألا فتى يُوردُ الهندي هاتمه كبا تزول شكوك الناس وانهم
قانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتمطيل والدم
قانه هو عين قول ابن الرومي لصاحب طويلة في سورة
أخرى من السخرية :

أزح فيها للوسى قانك منها - يشهد الله - في أيام كبير
أثما كوسج يراها قياتي ربّه بعدها صحيح الضمير
هو أخرى بأن يشك ويفرّى باتهام الحكيم في التقدير
فلماذا أخذ قول المتنبي دليلا على ميله للتعجيل دون قول
ابن الرومي الذي منه استمر المتنبي ذلك المعنى ؟

كذلك الأمر الثاني ، لم يكن المتنبي بارعا فيه ولا بأول ولا آخر ؛
فما زال الشعراء يشبهون بمدوحهم بالأنبياء بل يجاوزون التشبيه
إلى ما هو فوقه ، وذلك معروف من مذهبهم قديما وحديثا ، ولا
نعنى أنه لا بأس به شرعا ، ولكننا نريد أن نقول إن المتنبي لم
ينفرد به ولم يطمئن أحد بمثله على غيره من الشعراء في عقيدته ؛
وقد وجد ذلك في صدر الاسلام ووسطه ويوجد الآن في هذا
العصر ، فمن قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

أنى الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى به موسى على قدر
ومن قول أبي نواس في الأمين :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب الحراب
ومن قول أمير الشعراء للرحوم أحمد شوقي بك يذكر
طائرات فرنسا :

لسليان بساط « واحد » ولكم ألف بساط في الفضاء
فهل هؤلاء الشعراء لا يضربون مع المتنبي على وتر واحد في
هذه النشمة ؟

والخلاصة أن المتنبي كغيره من الشعراء صدرت عنه أقوال
ظاهرها الاستخفاف بأمر الدين ولكن لا نحكم بمقتضاها أنه
قاسد العقيدة حتى نحكم على غيره من الشعراء بله العلماء أنهم
كذلك ، فان بعضهم أسوة بعض في هذا الأمر

وأما أخلاقه فلنا بحاجة إلى التنويه بما كان عليه من علو
الهمة والشجاعة والصدق والوقاء ، فان شعره مملوء بشواهد ذلك
حتى لقد بلغ من علو الهمة أن طاب خصومه بهذا الخلق ، فاتهم
من لقبه بالمتنبي لتشبيهه نفسه بالأنبياء ، ومنهم من جعل ذلك مرضا

نفسياً أشبه ما يكون بالجنون . والواقع أن النبي كان يُسرف في التمسُّم وإن كان له سلف في ذلك ، فانظر إلى قوله :
 أى عمل أرتقى أى عظيم أتقى
 وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
 عتقر في همى كشمرة في مفرق
 فانك لا تجده يختلف عن قول هبة الله بن سناء الملك :
 وفرطُ احتقارى للأنام لأننى

أرى كل عار من حلى سوددى سدى
 أرى الخلق دونى إذ أراى قوة هم ذكاء وعلماً واعتلاء وسؤدا
 وبلغ من شجافته أن لاقى الموت المحقق فراراً من الفدر .
 وبلغ من صدقه أن قال عنه على بن حمزة إنه ما كذب قط ، وقال هو :
 ومن هوى الصدق في قولى وعادته

رغبتُ عن شمرة في الرأس مكذوب
 وبلغ من وفائه أنه رغم ما عامله به سيف الدولة من سوء
 العشرة ، لم يبرح ذا كراً له متشوقاً إليه ؛ وقد كان يمدح كافوراً
 فيصدر بمدحه ويكثر التأسف على فراقه . ومن شدة وفائه أنه وفى
 للشيب فلم يقدر على مفارقتة إلا حزينا باكياً كما قال :
 خلقت أوفقاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكياً
 هذه أخلاق النبي ليس فيها منمز لأحد ؛ وقد وصف بها نفسه
 في شعره ، وجاءت سيرته دليلاً على صدقه في هذا الوصف . إلا أن
 الطاعنين عليه لم يبدوا ما يلزمون به أخلاقه أيضاً فقالوا : إنه
 كان بخيلاً ، وبخيلاً جداً ، واستدلوا على ذلك بحكايات ملفقة تشتم
 منها راحة الوضع كما يقول المحدثون ، وبآيات من شعره إن لم نقل
 لأنها محرفة عن موضعها فلا أقل من أن تقول إنها لا دلالة فيها
 على ما زعموه أسلاً . فأما تلك الحكايات فقد كفاها الأستاذ
 المازنى أمرها إذ بين ما فيها من زور وما محتويه من بهتان^(١) ؛ وأما
 آيات الشعر فاما ناقلون مما هو نص من شعره في نق هذه التهمة
 عنه ثم مقارنون بينه وبينها ليظهر خطأ الاستدلال بها وانحما
 لا خفاء فيه

قال النبي يستجيز كافوراً ما وعده به من الولاية :

(١) حصاد الهشم ص ٢٢٢ وما بعدها

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
 فاني أعتى مُتدُّ حين وتشرَّبُ
 إن لم تُتنط بي ضيمة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب
 وقال فيه أيضاً :

وهل نأفنى أن تُرفع الحجب بيننا
 ودون الذى أمّلتُ منك حجابُ

فهذا النبي يقول إن بنيته في فضلة من الكأس الذى
 يشرب بها كافور « بمعنى الولاية » لا المال . وإن كل ما وصل
 من عطاء كافور لم يرفع الحجب بينه وبين ما أمله منه ، ولا شك
 أن ذلك شيء غير المال . ومن كانت هذه منزلة المال عنده ، لا يحفل
 به ولا يجعله شيئاً مما أمله ، فكيف يوصف بالبخل ويتهم بالحرص
 لو كان هناك انصاف ؟ وقد صرح بما أخذ ضمتنا من هذه الآيات
 في قوله

وما رغبتى في عسجد أستفيدُهُ ولكنها في مَفخر أستجدُهُ
 وقال في شكره لمن وهب له هبة :

وما شكرتُ لأن المال فرحنى سَيان عندي إكثار وإقلال
 لكن رأيت قبيحاً أن يُجَاد لنا وانا بقضاء الحق بُحَال
 وفي مطلعها ما يشير إلى صدق قوله « فجودك يكسونى وشغلك
 يسلب » وهذا هو المطلع :

لا خيل عندي أهدىها ولا مال فليصدق النطق إن لم تسد الحال
 ثم هل بقى من تقبيح البخل أكثر من جملة من مبطلات
 الصلاة كما قال :

فنى لا يُرجى أن تتمَّ طهارة لمن لم يطهر راحتيه من البخل
 فهذه الآيات وسواها كثير مما هو نص في المراد ، كيف
 يصح إغفالها والتمسك بمثل قوله دليلاً على بخله :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
 فهل هو إلا مقرر لحقيقة واقعية ، وهى أن المجد مهما كان
 رفيعاً لا اعتبار له إلا بالمال ، وقد أجمع الناس على ذلك فما يحترمون
 إلا صاحب المال ولو كان دينياً ؟ ولكن ألا تراه مع ذلك قد
 عقب بأن المال وحده لا اعتبار له عند العقلاء ولا بد من
 خصال المجد التى هى أساس الاعتبار ؟

وأعرب من ذلك الاستشهاد على بخله بمثل قوله :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتك البكر
وقضيب أعناق الملوك وان ترى لك الهبوات الكثر والعسكر المجر
فلو أن الفلك جرى بموافقة سعيه لمصفت بدول عصره جميعاً
ولو دولة الخلافة ، وأقام على أنقاضها دولة متنبية من الطراز
التي يقول فيه أبو الطيب :

أعلى المالك ما يني على الأسل

وما أصدق ذلك الذي قال على لسان كافور^(١) وقد صور أنه
سئل لماذا لم ينزل التنبي ما طلب منه من الولاية : « يا قوم ! من ادعى
النبوة مدع محمد صلى الله عليه وسلم كيف لا يدعى الملك بمد كافور ؟ »
وحينئذ فإذا كان يصير لو نجح التنبي في مطلبه ؟

إن الدولة العربية كانت قد شاخت في زمنه وتمكن الضعف
منها فصارت هامة اليوم أو الغد ، وقد رأى هو أنت العرب
أصبحت تدن للعجم بالطاعة وذلك أمر ليس من صالحهم في شيء :

وانما الناس باللوك وما تصلح عرب ملوكها عجم
وان المسلمين أصبحوا في كل جهة عبيد المصا يسوقهم للقتال
أمامه كما يسوق الراعي قطعان الماشية :

سادات كلد أناس من نفوسهم

وسادة المسلمين الأعبد القزم

وقد صار أمرهم مع المشركين بين العجز عنهم والرهب منهم :
أرى المسلمين مع المشركين إما لعجز وإما رهب
فإذا قلنا إنه لو نجح في مطلبه لكان ذلك من الخير للعرب
والاسلام . لم يكن في قولنا هذا شيء من المبالغة لأن الرجل
كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد ، فكان ينفض
من روحه في جسم الدولة التمهالك ويهيب بالأمة إلى حياة المجد
والعظمة فما يكون بأسرع منها إلى الاستجابة له والاقبال عليه
صاعدة بأمره صادرة عن قوله :

لافتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا يتام
ليس عزماً معرض المرء فيه ليس همّاً ماطق عنه الظلام
واحتال الأذى ورؤية جاز به غناء تضوى به الأجسام
ذل من يغبط القليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
(طنجه)
عبد الله كنوره الحنفي

(١) لأننا نرجع أن نسبة ذلك لكافور لا تصح

من يطلب المجد فليكن كليل م يهب الألف وهو يبتسم
وقوله :

تهلل قبل تسليمي عليه وألقى ماله قبل الوساد
وهذا لوصح دليل على مجل الشاعر لمددنا كل شعراء العربية
بخالاً ، فانه لكثرة ما تدوول هذا المني ، صار لا يخلو منه ديوان شاعر
وإننا لا نتق أن التنبي كان جماعة للمال ، ولكنه لم يكن يفعل

ذلك إلا للاستماتة به على مقاصده كما يصرح هو بذلك في شعره لاسيما
وهو يعلم من أحوال عصره أن الاعتبار كله إنما هو لأهل المال خاصة .

وانظر إلى حكاية البطيخة التي أعطى صاحبها خمسة دراهم فلم يبعها
له وإعما بثلاثة لمن يملك مائة ألف دينار لجرد كونه يملك مائة
ألف دينار فانصرف وقد علم أنه لا يتم اعتبار الناس له إلا إذا
جمع مائة ألف دينار ؟ وقد كان كذلك ، وكل ما صدر عنه في هذا

الصدد إنما هو من قبيل المثل الفرنسي Quand je ferai mon million
وكم بين من يطلب المال ليستعين به على قضاء حقوقه — وأى
حقوق هي ! إنما لتزرى بحقوق الطفراني التي يقول فيها :

أريد بطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للملا قبل
وبين من يطلبه لجرد الحرص عليه وشهوته التي هي مرض من
الأمراض ، فان هذا هو البخيل حقاً لا ذلك !

والواقع أننا وجدنا التنبي صادقاً في كل ما ووصف به نفسه
من خلال المجد ، فلا يصح أن يكذب في هذا الأمر لجرد حكايات
الله أهم بمجالها وحال من يحملها إياه كذلك وجدنا شعره طائفاً
بمدح الكرم وذم البخل في أبيات صريحة لا غبار عليها فلا يجوز
أن نقض الطرف عن ذلك ونلجأ إلى الغرض والتخمين محملين
بعض ألفاظه مالا دلالة لها عليه لنصحج تهمة أنه كان بخيلاً !

وإذ قد فرغنا من الكلام في التقط الثلاث التي عتينا بها
هنا ، فلنتساءل ماذا كان مطلب التنبي في الحياة مادام لم يكن
يطلب المال لثاته ؟

والجواب أن التنبي كان طالب دولة ولاشك ، وكان لأعدى
إليه من أصحاب القول في عصره ، فهو لو تمكن منهم لارحمهم ،
بل نرحم شبابه من أن يرحمهم على حد تعبيره هو :

لا يخذلنك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو رحم
وقد كان يرى المجد في ضرب أعناق الملوك :